﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف: 96]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقالُ من ذكر المكذِّبين للرّسل إلى بيان أسبابِ إغداقِ البركاتِ

لم يكن أخذُهم بغتةً فعلًا حصل دون تمهّلٍ، وكان تبصيرًا وإنذارًا، فناسبه جوُّ التّرغيبِ، والدّعوةُ، وترسيخُ مبدأ المُجازاةِ فالإنكار، والعذاب (السّرّاء – والضّرّاء، السّيّئة – الحسنة، قد مسّ آباءَنا) يُقابلُه ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا﴾ فتحٌ في العطاء لا حدَّ له.

وكذلك مناسبةُ لفظِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ بصيغة المضارع الدّالِّ على تجدّدِ ارتكابِهم الموبقات لسياق الآيةِ الكريمةِ بعدَها الدّالِّ على التّحذير والتّخويف، ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم﴾ البأس، والشّدّة، والغضب متى شاء، وأين شاء، وكيف شاء تعالى وعزّ، فلمّا تجدّدَ لديهم الفعلُ، واستمرّوا عليه؛ حذّرناهم، وذكّرناهم بعقابنا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾: الواوُ والقافُ والياءُ: تدُلُّ على دَفعِ شَيءٍ عن شَيءٍ بِغَيرِه[1]، ويوجَّهُ عمومُ معناه إمّا على الحفظِ، وإمّا على الحذرِ، وكلاهما يعودُ الى المعنى الأصل، فوَقاهُ اللّهُ وِقايةً، أي: حفظه[2]، وصانه، وحماه، وستره. وفي التّنزيلِ العَزيز: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11][3]. والاسم: التَّقوَى، وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقى).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وقا).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وقي).

﴿وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾، أي: هو أهْلٌ أن يُتَّقى عِقابُه، وأهلٌ أن يُعمَلَ بما يؤدّي إلى مغفرتِه[1]. ورجلٌ تقيٌّ، وجمعه أتقياء، معناه: أنّه موقٍ نفسه منَ العذاب والمعاصي بالعمل الصّالح[2].

فالتّقوى إذًا: جعلُ النّفس في وقايةٍ ممّا يُخافُ، وهو في تعارف الشّرعِ حفظُ النّفسِ عمّا يُؤثِمُ، وذلك بتركِ المحظور[3]، والخوف من عقاب اللّهِ إن حصل انحرافٌ[4]، وهو مقصدُ اللّفظة، ومُؤدَّى معناها.

2) ﴿بَرَكَٰتٍ﴾: أصلُ الباء والرّاء والكاف واحدٌ دالٌّ على ثباتِ الشّيءِ[5]، ومع أنّ لفظَ البركة محتملةٌ هذا المعنى من حيث إنّها: ثبوتُ الخير الإلهيِّ في الشّيء، إلّا أنّ ثمّةَ معنًى شائعًا أدّتهُ؛ وهو الزّيادةُ والنّماءُ، وانحازَت إليه جلُّ معاني اللّفظة، جاء في العين[6]: "البَرَكةُ: الزّيادة والنّماء"، وهي: الكثرةُ في كلِّ خيرٍ، والمبارك: الّذي يَأتي من قِبَله الخيرُ الكثيرُ، ومنه قَوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ [الأنعام: 155][7]؛ تنبيهًا على ما يفيضُ عليه منَ الخيرات الإلهيّة[8]. ومعنى الإفاضة قد يكون مأخوذًا منَ البِركَة، وهي: أن يَدُرَّ لَبَنُ النّاقَةِ وهي بارِكَةٌ فتُقامَ، فتُحلَب[9]؛ أي: يفيض. وقد يُلمحُ في أصل معناها الاجتماعُ المصحوب بالزّيادة. والبَرَكاتُ: السَّعادَة، ومنه ما قيل في التَّشَهُّد: (السَّلام عليك أيّها النَّبيّ ورحمةُ اللّه وبركاتُه)؛ لأنّ مَن أسعَدَه اللّهُ بما أسعدَ بِهِ النّبيَّ ﷺ؛ فقد نالَ السَّعادَةَ المُبارَكَةَ الدّائمة[10]، أو المعنى: أثبتْ له وأدِمْ ما أعطيته منَ التّشريف والكرامة[11]. وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه لفظُ (تبارك) فهو تنبيهٌ على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكرِ (تبارك)[12].

(1) ابن سيده، المحكم: (وقي).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وقي).
(3) الرّاغب، المفردات: (وقى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(6) الفراهيديّ، العين: (برك).
(7) الأزهريّ، التّهذيب: (برك).
(8) الرّاغب، المفردات: (برك).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (برك).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(12) الرّاغب، المفردات: (برك).

فالبركةُ إذًا: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشّيء واستمرارُه مع لطفٍ، والخيرُ الإلهيُّ يصدرُ من حيث لا يُحسُّ، وعلى وجهٍ لا يُحصَى، ولا يُحصَر، وبه فُسِّرَتِ اللّفظةُ في الآية الكريمة[1]، مع احتمالِها جماعَ ما وردَ فيها من معانٍ، وفاقَ مفهومِ عدم إحصاء خيراتِه وحصرها.

3) ﴿يَكْسِبُونَ﴾: مِن (كسب) الكافُ والسّينُ والباءُ أصلٌ صَحيحٌ، وهو يدُلُّ على ابتغاءٍ، وطَلَبٍ، وإصابَةٍ، فالكَسبُ مِن ذلك[2]، وهو: الطّلبُ، والسّعيُ في طلب الرّزقِ والمعيشةِ[3].

فالكسب: ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، ككسب المال، وقد يُستعمَلُ فيما يظنُّ الإنسانُ أنّه يجلبُ منفعةً، ثمّ استُجلِبَ به مضرّةٌ، ويُقالُ فيما أخذه لنفسه، ولغيره، ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولين، فيُقال: كسبتُ فلانًا كذا[4]. وهو أيضًا: جَمعُ الشّيءِ وتحصيلُه شيئًا بعد شيءٍ بجُهدٍ ما آخذًا من حيث كان: كما تأخذُ الجوارحُ فرائسَها مرّةً بعد أخرى، وكما يُجمَعُ المالُ من مظانّه شيئًا بعد شيء. ومنه: الكَسب: طَلَبُ الرّزق، وتحصيلُه[5]، أو العملُ على الحصول على مرغوبٍ فيه، ومنه: الاستمتاع بشيءٍ محبوبٍ للنّفس تلذّذًا ومتعةً. ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة ما ارتكبوه من ذنوبٍ، وما اقترفوه من آثامٍ.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

يذكرُ اللّهُ لو أنَّ كفّارَ مكّةَ وغيرَهم من أهل القرى وما حولها، أو القرى الّتي أُرسِلَت إليها الرّسلُ، آمنوا باللّه، وصدّقوا رسلَهَ، وانقادوا لما أمرَ، وأدَّوا ما أوجبَ اللّهُ عليهم، واجتنبوا ما حرّم، وأعرضوا عمّا

التّرغيبُ بالإيمان إنذارٌ للمعرضين، وبشارةٌ للمؤمنين

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(3) الفراهيديّ، العين، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(4) الرّاغب، المفردات، والجرجانّي، التّعريفات: (كسب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).

نهى طاعةً وامتثالًا، لأغدقنا عليهم عطايا السّماءِ غيثًا، ورحماتٍ لم تُعهد، وأوسعنا عليهم هباتِ الأرض رزقًا، ومنافعَ، ومديدَ خيراتٍ لم تُشهد فضلًا منه سبحانَه، ونعمةً تتوالى وتُنمَى وتمتدُّ وتثبتُ. فيوضاتُ خالقٍ عزَّ وصفُ عطائهِ، واستحال إدراكُ آلائه. ومصداقُ ذلك إطلاقُ فعلِ الفتحِ، وتوسيعُ جهته بمُطلَقِ الأرض والسّماء من غير تقييدٍ، لكنّهم أعرضوا مُكذِّبين، وصدّوا معاندين، وتمادَوا في ضلالهم المبين، فحلَّ عليهم شديدُ العقاب استحقاقًا، وأثرًا لازمًا، لما ارتكبوا منَ المعاصي، وسوءِ الفعالِ، وحصائدِ الذّنوبِ، ومرتكباتِ الآثامِ الّتي أورثتهم إعراضًا عنِ الهداية، وإصرارًا على الكفر.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنَّ الإيمانَ قرينُ التّقوى، ومُلازمُها، وهومُتمِّمُ القبول، وسبيلُ القربِ، وتحصُّلِ ألطافِ الرّبِّ، وفيه ترغيبٌ للّذين آمنوا بالنّبيّ محمَّد ﷺ، فهما سببُ السّعادةِ في الدّارين، وأنّ الكفّارَ قد يُبسَطُ لهم الرّزقُ، وتُمَدُّ لهم أسبابُ الخير، وأبوابُ النّعمِ على سبيل الاستدراج[1]، وفي الآية دليلٌ على أنَّ استنزالَ الرزقِ يكون بالطّاعة، وحرمانَهُ بالمعصية والإثم، ومصداقُه حديث رسول الله ﷺ: «إنّ العبدَ ليُحرمُ الرّزقَ بذنبٍ يصيبهُ»[2]، فحرمانُ البركات، وإنزالُ العقوبات هو مُؤدَّى دنيءِ فعالهم؛ كذبًا وكفرًا[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

جملة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: 94]، أي: ما أرسلنا نبيًّا في قريةٍ، فكذَّبه أهلُها إلّا نبّهناهم، واستدرجناهم، ثمّ

مـا أُخـذوا بـالـعـذاب إلّا بكسب أيديهم، وسوء فعالهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط، ص: 133.

(2) أحمد بن حنبل، المسند: 5/277، الأحاديث رقم: (280 - 282)، والكَرَجيّ القصّاب، نكت القرآن الدّالّة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، ص: 397.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/281.

عاقبناهم[1]، أو: هي اعتراضٌ بين المعطوفِ والمعطوف عليه جيءَ به للمسارعة إلى بيان أنّ الأخذَ المذكورَ إنّما هو بما كسبَت أيديهم[2].

سرُّ التّعبير بـ ﴿وَلَوْ﴾:

التّكذيبُ شأنُهم، والجحودُ ديدنُهم

لمّا كان الكلامُ بما أفهمَته (لو) حرف الشّرط غير الجازم في قوّةِ أنّهم لم يؤمنوا، من حيث إنّها تفيدُ الامتناعَ؛ عبّر - في تناسقٍ بين الألفاظ وتناسبٍ - بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾، أي: كان التّكذيبُ ديدنَهم وشأنَهم؛ فلذلك لم يصدّقوا رسلَنا في شيءٍ[3].

دلالةُ اقترانِ الشّرط بـ ﴿أَنَّ﴾:

نزولُ البركاتِ قيدُ الإيمان، لو آمنوا قبلُ لفُتِحَت عليهم أبوابُ البركات

وشرط (لو) الامتناعيّة يحصلُ في الزّمن الماضي، ولمّا جاءَت جملةُ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ مُقترنًا شرطُها بحرف (أنَّ) المفيد للتّأكيد والمصدريّةِ، وكان خبرُ (أنَّ) فعلًا ماضيًا، توافر معنى المضيّ الدّالِّ على التّحقّقِ في جملة الشّرط، والمعنى: لو حصل إيمانُهم فيما مضى؛ لفتحنا عليهم بركاتٍ[4].

نكتةُ إضافةِ ﴿أَهْلَ﴾ إلى ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾:

الإضافةُ تشملُ عمومَ المُخبَر عنهم، وتعريضٌ بإنذار الكفرة، وبشارة المؤمنين

إضافة ﴿أَهْلَ﴾ إلى ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ تفيدُ عمومَه بقدر ما أُضيفَ هو إليه؛ ليشملَ جميعَ سكان القرى الّتي أُرسِلَ فيها الأنبياءُ، وليدلَّ على أنّهم كانوا مُتّحدين في الكفر والطّغيان، وهو تصريحٌ بما أفهمَهُ الإيجازُ في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: 94] بحذف الأهلِ، وتعريضٌ بإنذار الّذين كذّبوا محمّدًا ﷺ من أهل مكّةَ، وتعريضٌ ببشارة أهل القرى الّذين يؤمنون كأهل المدينة[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/20.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/336.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/20 - 21.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21.

دلالةُ تعريفِ الألف واللّام:

عـهـديّـةُ الـلّـامِ تـعـنـي الـقـرى السّابقةَ المُهلَكةَ، أو المُـنـذَرةَ من مكّةَ وما حولها

الألفُ واللّامُ في القرى عهديّةٌ إشارةً إلى (القُرَى) المُهلَكةِ الّتي دلّ عليها قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: 94][1]، فهي للعهد الذِّكريّ، والقرية وإن كانت مفردةً لكنّها في سياق النّفي، فتُفيد معنى الجمعِ.

ويجوزُ أن تكون اللّامُ للعهد الخارجيِّ إشارةً إلى مكّةَ وما حولها، ووجهُهُ أنَّه تعالى لمّا أخبرَ عنِ القرى الهالكةِ بتكذيب الرّسلِ، وأنّهم لو آمنوا؛ سلموا وغنموا، انتقل إلى إنذار أهلِ مكّةَ وما حولها ممّا وقع بالأمم والقرى السّابقة[2].

جـنـسـيّـةُ الـلّـامِ تـعـنـي عـمـومَ القرى، من غير تقييد

ويجوزُ أن تكونَ الألفُ واللّامُ في ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ للجنس[3]، والمعنى: ولو أنَّ أهلَ القرى أينما كانوا، وفي أيّ بلاد سكنوا، آمنوا واتّقَوا؛ لصَبَّ اللّهُ عليهم البركاتِ صَبًّا، ولكن كذّبوا بالآيات والأنبياء، ولم يؤمنوا، ولا اتّقَوا، فأخذهم اللّهُ بالعذاب بسببِ ما كانوا يكسبون منَ الذّنوبِ الموجبةِ لعذابهم[4].

سرُّ العطفِ في الآية:

تقوى الله تعالى ظـاهـرًا وبـاطـنًـا قـريـنُ الإيـمـان، وبـهـما تُـستـنـزلُ البركات

عطْفُ فعلِ التّقوى على فعل الإيمان بواو التّشريك في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ دليلُ اقتران الفعلين، وتلازمهما، فالإيمانُ يخصُّ الباطنَ، والتّقوى تخصُّ الظّاهرَ، وهما - معًا - سبيلُ فتح اللّه أبوابَ الخير لهم من كلِّ وجهٍ، وإنزالِ البركات، ولا يكفي الإيمانُ وحدَه.

دلالةُ الاستعارة في لفظ الفتح:

في (فتحنا) استعارةٌ تبعيّةٌ مُستلزِمَةٌ للتّمثيليّة؛ فقد شبّه تيسيرَ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/588، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/10.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/133.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/259.

البركات بفتح الأبواب، وصرَّح بالمشبّه به (الفتح)، وحذف المشبّه (اليُسر) مع وجود قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الحقيقيّ وهو (البركات)، ووجهُ الشّبه بين المستعار منه، والمستعار له سهولةُ التّناول، ويجوزُ أن يكونَ هناك مجازٌ مُرسَلٌ، والعلاقةُ (لزومُ التّيسير)[1].

اقـتـرانُ الإيـمـان بـالـتّـقـوى فـتـحٌ عـمـيـمٌ، يـسـيرُ الـتّـنـاولِ، سـهـلُ الـوصـول إلى المبتغى

وقد يكون الفتحُ استعارةً للتّمكين، فتكون تعديةُ فعلِ الفتحِ إلى البركات استعارةً مكنيّةً بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه، أو تشبيه إنزالِ الخيراتِ بخروج النّاسِ من أبوابها أفواجًا[2]، وعمادُ هذه الاستعاراتِ تشبيهُ عطاءِ اللّهِ الكثيرِ، ويُسْرِ تَناولِهِ بفتح الأبواب.

توجيهُ قراءةِ التّضعيف:

قرأ الجمهورُ ﴿لَفَتَحْنَا﴾ بالتّخفيف، وقرأه ابنُ عامر وأبو جعفر من بعض طُرقه بتشديد التّاء (لفَتَّحنا)[3]؛ للمبالغة في الفتح بكثرته، وزيادته، ومضاعفته[4].

مِـن كـرم المـنّـانِ المبالغةُ في الفتح

سرُّ إطلاق فعلِ الفتح دون قيد:

في إطلاق فعلِ الفتحِ في قوله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وتوسيعِ جهته، وإعمامِه بمطلق السَّماء والأرض مُصدَّرًا بـ ﴿مِّنَ﴾ الدّالّة على ابتداء الغاية المكانيّة؛ بيان لاشتمال كلِّ موضعٍ، وجانبٍ، من دون تقييد، كما قُيِّدَ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66] مع تضمّنها المبالغة في شرحِ السَّعَةِ والخَصب، إلّا أنّه مقيّدٌ بالظّرفين، ولذلك فُسّر ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: 66] بنزول المطر،

نفيُ تقييدِ الفتحِ بـظـرفٍ سـعـةٌ في المـنّـةِ تناسبُ فـعـلَ الإيـمـان والتّقوى

(1) الخفاجيّ، عناية القاضّي وكفاية الرّاضّي: 4/330، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/158، والآلوسي، روح المعاني: 9/10.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2906.

(3) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 257، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/258.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/230 - 9/21.

و﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ [المائدة: 66] بخروج النَّبات[1]، فامتدادُ مصدرِ الفتحِ دون قيدٍ سَعةٌ في الفضل، وكرمٌ في العطاء، يناسبان اقترانَ فعلي الإيمان والتّقوى وعلوّ شأنهما.

نكتةُ توكيد الفتح:

الفتحُ مآلٌ قرينٌ لفعلي الإيمان والتّقوى

اللّامُ في ﴿لَفَتَحۡنَا﴾ جوابُ لو الشّرطيّة أفادَت تأكيدَ الفتح بوصفه مُؤدًّى لازمًا لفعلي الإيمانِ والتّقوى، مصاحبًا لاجتماعهما في المرء، أمارةً على علوّ منزلته، وارتفاع شأنه، علوًّا يناسب الإغداقَ بالبركات دون قيد؛ فتحًا مثوبةً من لدن عزيزٍ كريمٍ.

توجيهُ تعدّي الفتح بـ(على):

الإنـزالُ من عَلٍ فيضُ إحسانٍ، وهبةُ منّانٍ

(على) في قوله: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم﴾؛ للاستعلاء، وأفاد تعدّي فعل الفتحِ بها معنى الإنزالِ والفيضِ، والعطاءِ الواسعِ، وسعةِ الشّيءِ المُنزَّلِ، وقوّتِه؛ فاللهُ تعالى عالٍ على عباده، يفتحُ عليهم ما يشاءُ، من أين شاء[2]، وقد يتعدّى فعلُ الفتح باللّام ليفيدَ الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: 1]، وبالباء ليفيدَ معنى السّببيّة والمصاحبة، كقوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١﴾ [القمر: 11][3].

فائدةُ تنكيرِ البركاتِ وجمعِها:

تكثيرُ البركات مبالغةٌ في الجزاء

وأفاد ذلك الإتيانُ بالبركات مجموعةً بصيغة التّنكير الدّالّ على الكثرةِ، والعمومِ، وعدمِ التّعيين[4]، وبمَبنَى اسم المصدر؛ لتوكيد المبالغة.

من هباتِ الرّحمن تنوّعُ أصناف البركات

والمقصودُ منَ الجمع تعدّدُها، باعتبار تعدّدِ أصنافِ الأشياءِ المباركة، وجماعُ معناها هو الخيرُ الصّالحُ الّذي لا تبعةَ عليه في

(1) ابن عادل، اللّباب: 7/435.
(2) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ص: 172 - 173.
(3) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ص: 172.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.

الآخرة، فهو أحسنُ أحوالِ النّعمةِ، ولذلك عبّرَ في جانب المغضوبِ عليهم المُستدرَجين بلفظ الحسنة بصيغة الإفرادِ في قوله: ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾، وفي جانب المؤمنين بالبركات مجموعةً[1].

بلاغةُ الاستثناءِ بـ﴿وَلَٰكِن﴾:

الإهلاكُ بسبب ما كانوا يكسبونه منَ الآثام علّةٌ حَجبِ البَركاتِ عنهم

قولُه: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ استثناء نقيض المقدَّم، وهو شرطُ (لو)، فإنّ التّكذيبَ هو عدمُ الإيمان، وجملةُ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ مُتسبِّبةٌ على جملة: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾، وهو مثلُ نتيجةِ القياسِ؛ لأنّه مساوٍ نقيض التّالي؛ لأنّ أخْذَهم بسببِ ما كانوا يكسبونه منَ الآثام والذّنوب فيه عدمُ فتحِ البركاتِ عليهم.

إيثارُ فعلِ الأخذ:

الاستئصالُ عذابٌ يناسبُ التّكذيبَ، وجحودَ العطاء

المرادُ بالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أخْذُ الاستئصالِ، والإهلاكِ الواقعِ على وجه التّحقيقِ بصيغة الماضي، غيرَ ممهلين إيّاهم جزاءَ مقابلتهم واسعَ عطائنا بالتّكذيب. فالفاء للتّرتيب والتّعقيب والسّببيّة من غير مهلةٍ، والباء للسّببيّة، و(ما) موصولٌ مُبهمٌ يناسبُ مديدَ كذبِهم.

علّةُ التّعبيرِ عنِ الأخذ بصيغة التّعظيم:

شدّةُ العذابِ بحسب عِظَمِ الذّنب، وسوءِ الكسب

لمّا كان التّكذيبُ موضعَ الجلافة والجمود الّذي هو سببٌ لعدم النّظر في الدّليل، كان الجزاءُ شدّةَ العذابِ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بما لنا منَ العظمة مُؤدًّى بضمير التّعظيم (نا)؛ بسبب ما ﴿كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، أي: بجبلّاتهم الخبيثة منَ الأعمال المناسبة لها[2].

توجيهُ اقترانِ الماضي بالمضارع:

كسبُهم كفرًا وعصيانًا حتميٌّ، مارسوه ودأبوا عليه

و﴿كَانُواْ﴾ في قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ تدلُّ على المضي والانقضاء، أي: بسبب ما كسبوه منَ الكفر والعصيان[3]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21 - 22.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/22.

واسْتِمْرارِهِمْ وتَجَدُّدِهِمْ على ذلك في الحال والاستقبال، بدلالة مَبنَى المضارعة ﴿يَكْسِبُونَ﴾.

بلاغةُ الالتفاتِ في الفاصلة:

كسبُهم الآثام راسخٌ حذَّرهم اللهُ منه مرارًا، وتَكرارًا

الالْتِفاتُ من أساليب القرآنِ البلاغيّةِ الّتي تدلُّ على روعة البيانِ وتنوّعِ المعاني، ففي الالتفات منَ المُضيِّ إلى المضارع تثبيتٌ لحالهم الرّاسخِ فيه جحودُهم، المُتحقِّقِ مَعَهُ سوءُ أفعالِهم، ولِيناسبَ ما سُيتبعُ من تحذيراتٍ: بياتًا، وضحى، وتدبيرًا.

بديعُ التّقابل في الآية:

لا نفعَ للخير مع الكذب، بخلاف الإيمان فإنّه نفعٌ مُطلَقٌ

ومن جميل التّقابلِ اللّفظيّ والدّلاليّ في الآية الكريمة ترتيبُه تعالى على الإيمان والتّقوى فتْحَ البركاتِ، ورتَّب على التّكذيبِ وحدَهُ، وهو المقابلُ للإيمان، الهلاكَ، ولم يذكر مقابلَ التّقوى؛ لأنّ التّكذيبَ لم ينفعْ معهُ الخيرُ، بخلاف الإيمانِ فإنّه ينفعُ، وإن لم يكن معه فعلُ الطّاعات[1]. فالإيمانُ والكذبُ تضادُّ إيجابٍ يُعوَّلُ عليه في علم البديع في توكيدِ المعاني وتقريرِها وتثبيتِها في النّفوس، زيادةً على تزيين اللّفظِ، وتحسين النّظم، وكشف القيمةِ الجماليّةِ الّتي تسهمُ في تنشيط فعلِ التّأويلِ، وتكثيف النّظرِ الذّهنيّ للوقوف على حدود المعنى العميقِ للعبارات، فبضدِّها تتميّزُ الأشياءُ.

براعةُ تناسبِ الفواصل:

مَـن سَـدَرَ في الغفلة واللّهو لا يسمعُ التّنبيه

ومن بديع تناسبِ فواصل الآي: ﴿يَكْسِبُونَ﴾، ﴿نَآيِمُونَ﴾، ﴿يَلْعَبُونَ﴾، ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾، تصويرُ المعنى: وكأنّ مِلاكَ كسبهم نومُ غفلة، ولعبٌ ولهوٌ؛ فما يُتَوقّعُ أن تكونَ النّتيجةُ غيرَ أنّهم لا يسمعون؟

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»